من أجل وحدة المثقفين العراقيين

كاظم الحجاج

منذ عام تقريباً وهناك من زعماء الطوائف والفئات من يشكو من (التهميش) ونقصان حصته، في زمن المحاصصات أو الانتخابات المثيرة للجدل، ومنذ عامين أو أكثر والمثقف العراقي قد أرتضى لنفسه العزلة الاختيارية أو القسرية في هذا الزمن المريب دولياً، واقليمياً ووطنياً. وإذا كان الدور المفترض للمثقفين في العالم ان يكونوا في الطليعة دائماً، وفي الصف الأول القيادي للتغييرات والانتفاضات، فإن مثقفي العراق قد وجدوا أنفسهم أمام ظرف خارج عن سياق المقدمات والنتائج، تماماً كما وجد المثقفون الوطنيون الألمان. من قبل. أنفسهم أمام ديكتاتورية داخلية هائجة، كان دورهم التاريخي يحتم عليهم ان يقاوموها وان يسقطوها بأنفسهم، لكن ذلك كان مستعصياً من دون قوة خارجية متحالفة، لأن ديكتاتورية (هتلر) قد عبرت حدود ألمانيا إلى العالم الخارجي، وكذلك كان اليابانيون امام عسكرية بلادهم المتوحشة عابرة الحدود.

فكان الخيار صعباً بين الفرح بسقوط عدو داخلي من خلال احتلال اجنبي، وان كان مؤقتاً. انه خيار بين بداهة ميل الإنسان نحو الخلاص من قبضة (داخلية) خانقة ومدمرة، وقبضة خارجية مخلصة، وان كانت لها أهداف ابعد من تخليصك، والغريق لا وقت لديه لاختيار اليد التي تمتد لإنقاذه.

ان احداً لا يجرؤ على اتهام المثقفين بنقص الوطنية، أو بالتواطؤ مع قوى خارجية، لأن طموحات المثقفين اقل بكثير من طموحات السياسيين وزعماء الأحزاب والقبائل والطوائف، انهم. نعني المثقفين. لا يريدون أكثر من مكتبة لا رقابة عليها، في بيت متواضع، مملوك أو مستأجر، ولا يريدون أكثر من أن يكتبوا ما يشاؤون، وان يلبسوا ما يشاؤون وان يطيلوا لحاهم أو يحلقوها، وان يسمعوا الموسيقى ويدخلوا المسارح، وان يسافروا ويعودوا إلى بيوتهم.

ومن هنا تأتي شبهة عزلتهم عن المشهد السياسي، كونهم لا يجدون شيئاً يستحق التكالب عليه، أو التقاتل من أجله، إلا حريتهم في وطنهم، لأنهم ضد الخنق والديكتاتوريات (الداخلية) أياً كان رداؤها: (زيتونية) أم معممة! وتلك هي أولويتهم التي تسبق حتى الموقف من الاحتلال، لأن شريعة المقاومة تعني ان احراراً يدافعون عن حريتهم لا أن يدافع العبيد عن قيودهم وعن مستعبديهم.

ويبقى السؤال هو: هل المثقفون محدودو الفاعلية لقلتهم أو نخبويتهم؟ وهل ان تهميشهم متلازم مع قلتهم العددية؟ وهو ما يتعارض مع واقعية الثقافة في هذا البلد الشرقي الأول في القراءة والاستهلاك المعرفي وأكثر البلدان حرصاً على المكتبات البيتية منذ مئات السنين. ومن هنا يمكننا توسيع قاعدة الثقافة العراقية من المعلمين والمدرسين واساتذة الجامعات، ومن يتخرج من بين أيديهم من أطباء ومهندسين وعلماء ومختصين، إضافة إلى المفكرين والأدباء والفنانين والصحفيين وقادة المجتمع المدني، ومدمني القراءة الخفيين، ومن هنا سنكون أمام أكثرية تنازلت عن ثقل حجمها بالزهد والانزواء والمراقبة عن بعد.

إننا ندعو مثقفي العراق إلى فك الارتباط، ولو مؤقتاً، باحزابهم وطوائفهم ومنظماتهم، لكي يعيدوا توضيح حجم كيانهم وأبعاد مساحتهم العريضة الواسعة، من أجل الانتماء إلى الثقافة العراقية المهددة بالتشتت والانزواء الذاتي ومحاولات تهميش الآخر لهم. ونرى ان من العار ان يتخلى المثقف عن امتيازه النخبوي القيادي ويتحول إلى رقم في قاعدة حزب أو طائفة أو دين أو عشيرة، ومن هنا ندعو مثقفي العراق من العرب والكرد والتركمان والمسلمين الشيعة والسنة، ومن المسيحيين والصابئة وسواهم إلى استرجاع هويتهم الأعلى والأسمى، هوية الثقافة العراقية المهددة أكثر من سواها. كما ندعو إلى مؤتمر وطني لمثقفي العراق كافة، لكي يقولوا رأيهم القوي في التعامل مع الواقع العراقي الراهن: واقع الوجود الأجنبي وسبل التعامل معه، وكتابة الدستور ومستقبل العراق بكل تفاصيله كي لا يستعيد القتلة بعض مواقعهم التي خسروها بالاحتلال، وكي لا يحصلوا على امتيازات ومواقع جديدة من خلال الذبح والتهريب والتخريب، ولكي يعلم الجميع ان عراقاً ديمقراطياً فدرالياً موحداً هو مشروع المثقفين العراقيين وليس مشروعاً امريكياً.

وهذا هو رهاننا الأخير، بعد الثمن الباهظ الذي دفعه العراقيون من دمائهم الغالية ومن ثرواتهم وحرمة بلدهم المقدس، وهو واقع فرضه اختلال الميزان الدولي، الذي وضع العراق والمنطقة ما بين المطرقة الأمريكية والسندان السلفي التكفيري المتخلف.

لا للبقاء الاجنبي الدائم على أرض العراق، لا للإرهاب البعثي والتكفيري، لا للنهب الحزبي والعشائري والطائفي لخيرات العراق. لا للتدخل الإقليمي في شؤون العراق،

نعم لدستور عراقي نموذجي يليق بثقافات العراق، وحضاراته ورقي أبنائه وتضحياتهم.

عاشت الأمة العراقيّة الكبرى.

وعاشت وحدة مثقفي أمّة العراق الكبير.

رؤيا شريعتي

(٣-٥)

عبد الجبار الرفاعي

يبدو ان الهموم النضالية لشريعتي، ومحاولاته الواسعة لأنسنة الدين، والتشديد على المضامين الاجتماعية للاسلام، هي الباعث لمسعاه في تحويل الإسلام (من ثقافة إلى ايديولوجيا). وربما تأثر شريعتي باطروحات جماعة لاهوت التحرير، ودعواتهم لتحويل الدين إلى ايديولوجيات لمناهضة الاستعمار، وتحرير الارض، وتنمية المجتمع، بعيدا عن مشاغل اللاهوت الكلاسيكي.

ومما لا ريب فيه ان هيمنة الايديولوجيا على وعي الباحث ولا وعيه، تحول بينه وبين الوصول إلى نتائج علمية أكثر موضوعية وحيادا في تفكيره وبحثه. ذلك ان الايديولوجيا تقود اية عملية تفكير وتوجهها الوجهة التي تنشدها، وتضاعف التحيزات والمفروضات القبلية في ذهن الباحث، وتسوقه دائما إلى مواقف ونتائج محددة سلفا، باعتبار التفكير الايديولوجي يسعى إلى تغيير العالم لا تفسيره. وينشغل انصار الايديولوجيا بسكب المجتمع في قوالبها ورؤيتها الخاصة، ولذلك ينددون بالتعددية ويكرهون الناس على تفسير رسمي للمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية، ويخنقون الاسئلة الكبرى، ويعملون على ترسيخ الجزمية واليقين، وبالتالي بناء مجتمع مقلد مغلق. وتكمن المفارقة في ان شريعتي الذي اعلن عن مطمحه في الانتقال بالاسلام "من ثقافة إلى ايديولوجيا" تسود كتاباته نزعة تفكير حرة، ترفض المجتمع المغلق، وتدعو إلى اصلاح الفكر الاسلامي، والانفتاح على مختلف الاديان والثقافات، وتحكي آثاره ذائقة فنان، وروح شاعر، وعقلية ناقد، ونزعة متمرد، ومثل هذه السمات في الشخصية يتعذر على الايديولوجيا الانسجام والتوافق معها. والمفروض ان مثقفا كشريعتي يدرك مثل هذا التهافت ، ويعي الالتباس بين الشخصية الايديولوجية، وشخصية المثقف، والشاعر والفنان، والناقد، لكن موقفه ظل ملتبسا بين شفافية الفنان الرومانسي وبين احلام وتطلعات المناضل.

العدة المعرفية للحاج علي شريعتي

تكرر ذهاب شريعتي إلى ديار الرحمن عدة مرات، فقد ادى العمرة ثلاث مرات، فيما ادى الحج أكثر من مرة، في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١، وكانت المشاعر المشرفة في مكة المكرمة، والمشاهد الكريمة في المدينة المنورة، مصدر الهام لجملة من افكاره، وانطباعاته، وتأملاته، واشراقاته الروحية، التي افاضها في محاضرات وكتابات احتلت مئات الصفحات من آثاره المنشورة.

وتحتل هذه المجموعة من الاثار اهمية فائقة، ليس لحجمها الواسع، وتنوع ما تناولته من موضوعات، تتصل بفلسفة التاريخ، وفلسفة العبادة، ومقاصد الشريعة، واهدافها العامة، فقط وانما لانها تعبر عن تجربة مميزة في ادب الحج، وعموم الانتاج الفكري حول الحج والعمرة، باعتبار صاحبها من القلائل الذين توفروا على عدة معرفية. تجمع بين التخصص الاكاديمي في علم الاجتماع وتاريخ الاديان ، والاطلاع على تراث وآداب الشعوب الإسلامية، ووعي العصر، وواقع المجتمعات الإسلامية، واحوال العالم . وقلما نجد من يتوفر في الوقت نفسه نفسه على ذائقة فنان، وخيال شاعر وانفعال انسان رومانسي، وخبرة في العلوم الانسانية الجديدة، واطلاع واسع على التراث والواقع، وداعية ومناضل.

في شخصية علي شريعتي نلمح عدة ابعاد، تمثل المفكر، والباحث، والمثقف، والفنان، والناقد، والمتمرد ، والداعية، وهي ابعاد ربما يبدو بعضها منافيا للبعض الآخر لا تجتمع وتتوحد في انسان الا في حالات محدودة.

تلك هي المواهب الذاتية ، والامكانات الخاصة، والادوات المعرفية ، التي يمتلكها شريعتي، وفتحت له ابوابا ونوافذ لتأمل وتحليل التجربة الدينية للحاج، ودراسة العناصر الرمزية في المناسك، وانماط التحولات الروحية والانثروبولوجية للمسلم الحاج. قد نلتقي في ضيوف الرحمن مع مبدعين وشعراء، وفنانين، ومفكرين، ومثقفين ، واكاديميين، وسياسيين وعلماء دين ، وعرفاء ومتصوفة، ولكن قليلاً ما نشاهد احدا تتجاور في شخصه وتلتحم مجموعة من تلك المواهب.

ولا ريب في ان الفنان تتجسد المناسك في وجدانه بصورة تحكي الالوان، والتشكيلات والحركات، والاصوات، وكانها لوحة متناسقة خلابة، في اطياف الوانها، وملامحها الجمالية، وانغامها. وهكذا تبدو المناسك في عيون السياسي، باعتبارها نموذجا لوحدة الامة وتضامنها، ومظهرا لعزتها واقتدارها، فيما تتجلى المناسك بصورة ثالثة لدى العارف والمتصوف ، وهكذا.

اما لو تكاملت مجموعة من هذه القابليات والامكانات في فرد واحد، فسوف تتسع رؤيته ، لتلامس طائفة من المعاني والدلالات الرمزية العميقة التي تشي بها الفاعليات المتنوعة للحج والمواضع المتعددة للمشاعر، يصعب على غيره استلهامها والتعرف عليها.

لقد وظف شريعتي كل عدته المعرفية، وثقافته الواسعة، وخياله الرحب في استجلاء المقاصد الكامنة وراء مناسك الحج، واشار إلى ان الوجه الظاهر للمناسك بوسعنا وعيه بما نتداوله من ادوات ادراك، ولكن الوجه الخفي يتعذر علينا وعيه بهذه الادوات، لانه خلاصة لتجربة وجدانية باطنية، لا يمكن قياسها أو اكتشافها بمفهوماتنا المتعارفة، كما لا نستطيع التعبير عنها بوضوح، لقصور اللغة عن حكاية الانطولوجيا الذاتية، وما تختزنه النفس من مشاعر واحاسيس وانفعالات وانطباعات جوانية.

من بقايا تفاهات حرب

خليل الأسدي

كلُ أسلحتي لم تزلْ في مشاجبها تنتظرْ..
والجنود الذين قضوا في حروبي القديمةِ..
ما زلت أسمع دِقات ساعاتهم..
أنهم ينفضون الغبارَ عن الوقتِ..
يسترجعون الدقائق
ـ كلُ الدقائق ذاتُ صدأْ...
ينشدون التراتيل..
ـ لا أرغن
أو بيانو..
بل نواحٍ
وأصداءِ ريحٍ
وإيقاع صوتِ مطرـ ...
يرتدون النياشين..
والأوسمةِ...
ثم يبكون..
يبكون للأغنيةْ..
لصوتِ (حضيري)..
و(داخل حسن)..
للصديقِ الذي فرّ من ميتةٍ
نحو أخرى..
وللمرأة الاحجيهْ..
ـ في حضَارتهم..
ثم روح..
وبزاتهم ثُقّبتْ بالرصاصْ..
كان لغزاً عصياً على الفهمِ..
ان يدخلوا حانةْ..
في خميس تهرأ تاريخهُ..
ثم تأخذهم جمعةٌ معتمةْ
للحروب التي غادروها بقمصانِ دمْ..
ما الذي يفعلون إذا..؟!
الغناء الذي هو بركةُ دمعْ..
يستعيدِ تفاصيل ذاكرة..
تستعاد تراتيلها في فضاءاتِ موتى..
ترتل ملغومة بالحواسْ..
الغبار الذي لم يزلْ فوق تلكَ الأرائكِ..
صارَ ذاكرة هو أيضا..
كل هذا العطبْ..
في مفاصل أوقاتنا..
والخيوط التي هي لونُ الرمادْ..
على حائطي..
العناكب تنسجُ أوقاتها في زوايا الغرفْ..

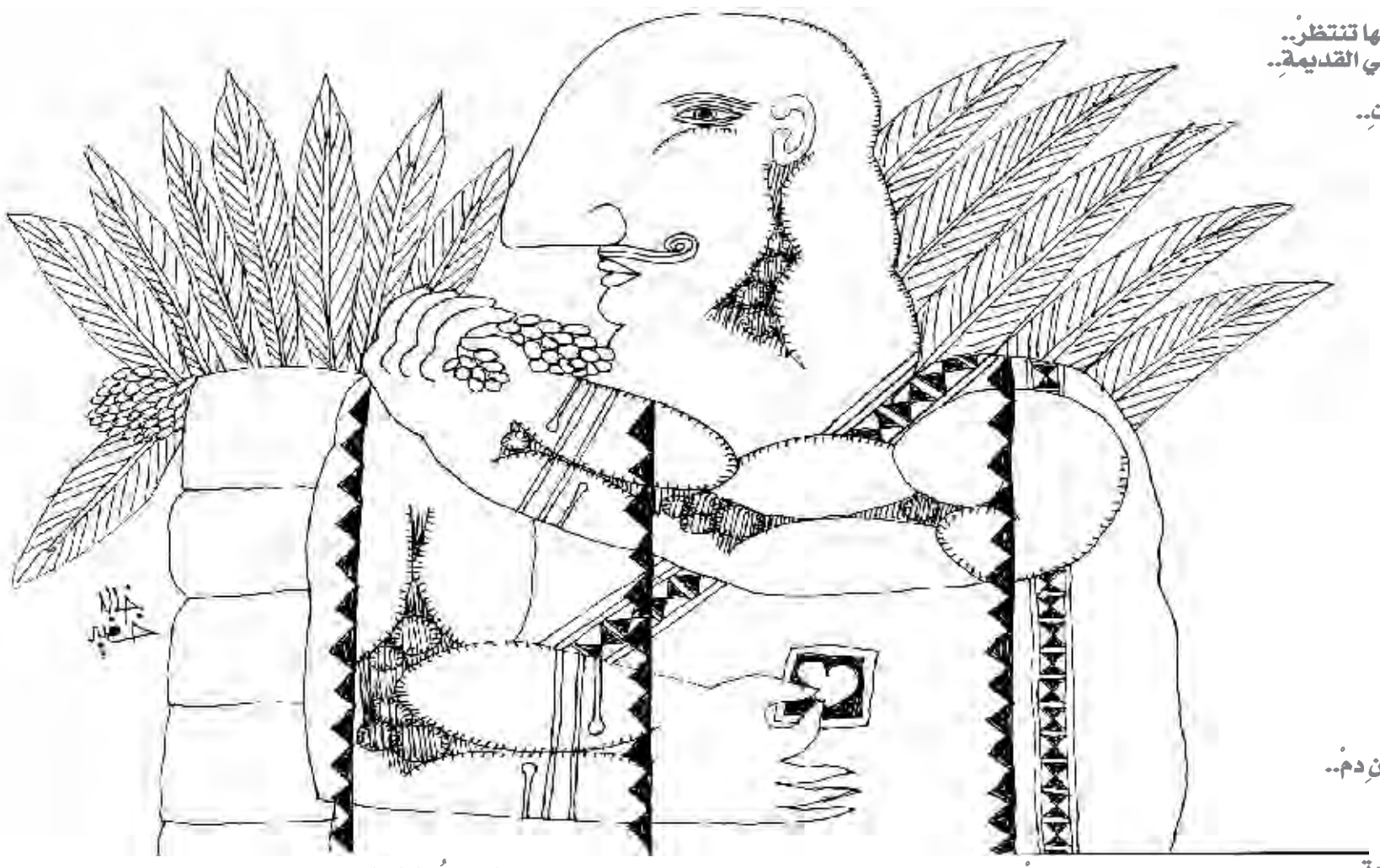

الغرفْ!!؟..
هي أيضاً مخابئُ للذاكرة..
مثلاً..
أن معركتي ها هنا كنتُ خطّطتُها..
كنت أنسجها مثل تلك العناكبِ بالضبطْ..
غير إني اكتشفت اخيراً..
بأن الهزائم كانتِ ظلالي..
وما كنت ألا فتى فوضوياً..
حروبي بلا قاعده..
والهزائمُ غاياتها..
ما الذي قد فعلت..
وماذا سأفعل بعدئذ..؟..
لم يزل ثم وقتٌ لآخر اطلاقة..
لم يزل ثم وقت لموتى سيأوون للنومِ هذا المساء..
كم قديم هو هذا المساء!!..
لم يزل ثم وقت ليومٍ غدٍ..
ولما بعد غد..

مستشرقون عراقيون

فاصلة

بعد أن عادوا إلى العراق في إنجازات سريعة من منافيهم كتب الكثير من الشعراء والكتاب المهاجرين نصوصاً عن مدنهم وقراهم، لكن ليس كما يكتب أي عائد شرقي إلى بلده، وإنما برؤية استشراقية فتحدثوا عن العراق وكأنه جزيرة لم تكتشف من قبل مع أن معظم هؤلاء ليسوا من المهاجرين الأوائل، نقصد مؤسسي الهجرة الأولى في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، بل هم من الجيل الأخير للهجرة، من الذين غادروا العراق بعد أوائل التسعينيات. أو بعد ذلك بقليل، وكانوا قد عاشوا حياة الحصار ووقائعه الحياتية المدمرة. وعانوا من الوضع السابق كما هو حال أغلب العراقيين، لكن بعد عودتهم، عندما تغير الوضع كتبوا نصوصا غريبة فيها الكثير من وهم المفكرين الذين يعودون إلى بلدانهم، فكتبوا عن رحلتهم إلى بلدهم بوصفها رحلة من رحلات المستشرقين بطرافتها وغرابتها ولكن ليس بعمقها إلى الحد الذي اقتبسوا فيه طريقة تفكير المستشرق الغربي وهو يصف بغداد بجانبيها الكرخ والرصافة، متحدثين عن العادات والتقاليد وبساطة الناس، والخراب الذي قلب كل شيء رأساً على عقب، وكيف أن شارع الرشيد لم يعد شارع الرشيد ومقهى حسن عجمي هي الأخرى لم تعد كما كانت، متوهمين علاقة جديدة مع المكان، وكيف أن الحواجز الأسمنتية تشوه وجه المدينة التي لا ترقى إلى أكثر المدن قذارة من التي زاروها في رحلاتهم التي بدأت غالبا من عمان وكأن حياتهم فيها وهم ينتظرون الحصول على اللجوء مرت بهدوء وفي بحبوحة من العيش.

ثمة خلل في رؤية المشهد الجديد في العراق، على خلاف من هاجر في ستينيات أو سبعينيات القرن الماضي، فهؤلاء لهم موقف آخر، مزج بين النوستالجيا والموقف المتوازن من المكان والتاريخ الشخصي، ونظرة عقلانية إلى مرابع الصبا، والأيام الأولى لنشوء وعيهم وتشكله، فقاموا بزيارات إلى الاهوار، وبغداد القديمة، مبتهجين ببقاء رائحة الماضي بكل ملابساته، وذهبوا إلى الصروح التي لم تدمرها ماكينة النظام السابق، و بعضهم كتب عن بغداد والتغيرات التي حدثت فيها وكأنه لم يبتعد عنها لحظة واحدة على خلاف الجيل الأخير للهجرة، وهو موضوع نبهنا إلى قراءة ما كتب هذا الجيل الأخير، الذي أفقدته سنوات انتظار اللجوء النظر إلى مشاعره وأهله وتاريخه الشخصي نظرة معتدلة خالية من الأوهام، وكشفت عن علاقة هشة بينه وبين مجايليه، وقدم تحليلات مجتزأة للتحول الذي طرأ على الحياة في العراق. حتى أن البعض لم تفته فرصة أن يسخر من تحليق الطائرات من مطار بغداد وهي تحلق عموديا بسبب الإجراءات الأمنية واتخذ من هذه الحادثة دليلا على الاختلاف الكبير بين منفاه والعراق، وتوهم أن اللصوص وعصابات الخطف تترصده، كون آثار العيش في الخارج بادية على ملابسه ووجهه.

على العكس من الجيل الأكبر الذي أول ما فعله التقى الناس بكل مستوياتهم، حاور جيل الشباب ودخل معهم في نقاشات جادة عن تأثير الدكتاتورية على النظر إلى المستقبل، وأجرى الكثير من الاستطلاعات والإحصاءات لمعرفة توجهاتهم الثقافية والسياسية والاجتماعية.

إن وهم المستشرق سيطر على الجيل الأخير من المهاجرين. وتخيلوا حوادث ميلان كونديرا، وسولجنستين وغيرهما، مع أن هؤلاء كانت بلدانهم المحرك الأساس لإبداعهم وكانت الحوادث المأساوية التي عاشوها دفعتهم إلى النظر بعمق اكبر في ثقافتهم وهم يكتبون عن عوداتهم من منافيهم في زيارات أو رحلات، لكنها أبداً لم تكن رحلات استشراقية تكشف عن خلل في التفكير، أو كتابات عن أماكن في بلدانهم سيطرت عليها الازدواجية والخروج على نمط المشاعر البشرية وهي تنشد بحنين إلى أماكنهم الأولى. ولم يحاول كونديرا أو غيره صنع تاريخ مزيف، أو تخيل ماضٍ ملفق لم يكن موجودا. حتى وانك تقرأ هذه النصوص التي كتبها الجيل الأخير من المهاجرين تتخيل أن هؤلاء مستشرقون لا يعرفون أسماء الأحياء الشهيرة في بغداد، أو المقاهي، والشوارع الرئيسة في المدينة على الرغم من أنهم قضوا فتوتهم وأيام دراستهم الجامعية يتسكعون فيها، ويحفظونها عن ظهر غيب.

ربما من حق هؤلاء لو استعاروا النظرة الاستشراقية المزيفة بالطبع بسبب أن النظرة الاستشراقية لا تقفز على الوقائع إنما تحللها و تقدم قراءة لها تنسجم وموقفها، لكنها في مجمل الأحوال تقدم معلومة صحيحة، فضلا عن التحليل العميق للظاهرة المدروسة سواء أكانت مكاناً، أم بنية اجتماعية، أم ظرفاً سياسياً كما يحصل الآن لدينا. إلا ان نظرة أصحابنا هؤلاء كشفت عن مرض يتعلق بالمهاجرين، لم يصب به غيرنا،فضلا عن الازدواجية والوهم وهما ينتقلان من الأشخاص إلى نصوصهم، فتقرأ كتابات تتحدث عن اللامكان والفنتازيا والتجريد. إن توهم فكرة الخلاص ربما تكون الدافع وراء كتابات من هذا النوع، وربما حالة الإحباط التي أصابت بعضهم الآخر وهم عاجزون عن تقديم موقف واضح لما يحدث في العراق، أو الشعور بالعجز عن الإسهام في إعادة بناء الحياة بعد التغيير. دفعهم إلى اختيار مواقع ليست لهم، فكتبوا متوهمين إنهم يمثلون نمط حياة أخرى غير حياة العراقيين المليئة بالدم، لذا لم يكتب احد منهم عن الأطفال وهم يفجرون في طريقهم إلى المدارس، أو عن تدمير الإرهاب للبنية التحتية، أو عن اللحم العراقي وهو يتناثر كل يوم في شوارع بغداد، لم يكتبوا عن المآسي اليومية التي يعيشها الشعب وإنما كتبوا عن طريقة استقبال الآخرين لهم، كتبوا عن أحلامهم في المفاضلة بين وظيفة جديدة في الداخل لمقارنتها مع حياتهم في المنفى، لاختيار المكان الأنسب بالنسبة لهم. لذا عاد البعض منهم بسرعة إلى منفاه خشية أن تضيع سنوات انتظاره للجوء، فجاء وعاد ليس كما يفعل المستشرق الذي يطيل النظر في الوقائع ويحللها، فقفز أصحابنا على الوقائع وعادوا بخفي حنين من حيث جاؤوا.

قاسم محمد عباس
qassm950@yahoo.com